الباب السادس عشر

وداع رمضان

« إذا كنت تبكي وهم جيرة

فكيف تكون إذا ودّعوا »

العشر الأواخر من رمضان

* في « الصحيحين » عن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ قالت : « كان رسول اللَّه ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله » هذا لفظ البخاري ولفظ مسلم: « أحيا الليل وأيقظ أهله وشدّ المئزر »(١) .

* وفي رواية لمسلم عنها قالت : « كان رسول اللَّه ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره » .

* كان النبي ﷺ يخص العشر الأواخر من رمضان بأعمال لا يعملها في بقية الشهر منها:

(١) إحياء الليل : فيحتمل أن المراد إحياء الليل كله ، ويحتمل أن يريد بإحياء الليل إحياء غالبه .

(٢) أن النبي ﷺ كان يوقظ أهله للصلاة : قال سفيان الثوري : أحبّ إلي إذا دخل العشر الأواخر أن يتهجد بالليل ويجتهد فيه وينهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه كان يطرق فاطمة وعليًا ليلاً فيقول لهما : ألا تقومان فتصليان ؟! وكان يوقظ عائشة بالليل إذا أقضى تهجده وأراد أن يوتر قال رسول اللَّه ﷺ : « **رحم اللَّه رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء ، رحم اللَّه امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء** »(٢) .

وفي « الموطأ » أن عمر بن الخطاب كان يصلي من الليل من شاء اللَّه أن يصلي حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة يقول لهم : الصلاة ، الصلاة

---

(١) قطعة من حديث عائشة المتفق عليه .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي وابن حبان والحاكم وابن خزيمة عن أبي هريرة، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٤٩٤) وفي رواية : « فإن قاما من ليلتهما هذه كتبا من الذاكرين اللَّه كثيرًا والذاكرات » .

ويتلو هذه الآية : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ . . . الآية .

* كانت امرأة حبيب العجمي أبي محمد تقول له بالليل : قد ذهب الليل، وبين أيدينا طريق بعيد وزاد قليل ، وقوافل الصالحين قد سارت قدّامنا ونحن قد بقينا .

يا نائم الليل كم ترقدْ قم يا حبيبي قد دنا الموعدْ
وخذ من الليل وأوقاته وردا إذا ما هجع الرقد
من نام حتى ينقضي ليله لم يبلغ المنزل أو يجهد
قل لذوي الألباب أهل التقى قنطرة العرض لكم موعد

(٣) أن النبي ﷺ كان يشد المئزر واختلفوا في تفسيره : فمنهم من قال : هوكناية عن شدة جده واجتهاده في العبادة كما يقال : فلان يشد وسطه ويسعى في كذا ، وهذا فيه نظر فإنها قالت : جد وشد المئزر وعطفت شد المئزر على جده ، والصحيح أن المراد : اعتزاله للنساء . وبذلك فسره السلفُ والأئمة المتقدمون منهم : سفيان الثوري .

وقد كان النبي ﷺ غالبًا يعتكف العشر الأواخر ، والمعتكف ممنوع من قربان النساء بالنص والإجماع .

وقد قالت طائفة من السلف في تفسير قوله تعالى : ﴿ فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ إنه طلب ليلة القدر ، والمعنى في ذلك : أن الله تعالى لما أباح مباشرة النساء في ليالي الصيام إلى أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود أمر مع ذلك بطلب ليلة القدر لئلا يشتغل المسلمون في طول ليالي الشهر بالاستمتاع المباح فيفوتهم طلب ليلة القدر . فأمر ذلك بطلب ليلة القدر بالتهجد من الليل خصوصًا في الليالي المرجوّ فيها ليلة القدر .

فمن هنا كان النبي ﷺ يصيب من أهله في العشرين من رمضان ، ثم يعتزل نساءه ويتفرغ لطلب ليلة القدر في العشر الأواخر .

(٤) **تأخيره للفطور إلى السحور** : في « الصحيحين » عن أبي هريرة قال: « نهى رسول اللَّه ﷺ عن الوصال في الصوم » فقال له رجل من المسلمين: إنك تواصل يا رسول اللَّه ؟ فقال : « **وأيكم مثلي إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني** ». ويتأكد تأخير الفطر في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر .

(٥) **اغتساله بين العشاءين** : قال ابن جرير : كانوا يستحبون أن يغتسلوا كل ليلة من ليالي العشر الأواخر وكان النخعي يغتسل في العشر كل ليلة .

* ومنهم من كان يغتسل ويتطيب في الليالي التي تكون أرجى لليلة القدر فأمر ذر بن حبيش بالاغتسال ليلة سبع وعشرين من رمضان .

ورُوي عن أنس بن مالك ـ رضي اللَّه عنه ـ : أنه إذا كان ليلة أربعين وعشرين اغتسل وتطيب ولبس حلة إزار ورداء ، فإذا أصبح طواهما فلم يلبسهما إلى مثلها من قبل .

*وكان أيوب السختياني يغتسل ليلة ثلاث وعشرين وأربع وعشرين ويلبس ثوبين جديدين ويستجمر . ويقول : ليلة ثلاث وعشرين هي ليلة أهل المدينة[١] والتي تليها ليلتنا ، يعني : البصريين وقال حماد بن سلمة : كان ثابت البناني وحميد الطويل يلبسان أحسن ثيابهما ويتطيبان ويطيبون المسجد بالنضوح والدخنة في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر . وقال ثابت : كان لتميم الداري حلة اشتراها بألف درهم وكان يلبسها في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر . فتبين بهذا أنه يستحب في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر التنظف والتزين ، والتطيب بالغسل والطيب واللباس الحسن كما يشرع ذلك في الجمع والأعياد وسائر الصلوات .

ولا يكمل تزين الظاهر إلا بتزين الباطن بالتوبة والإنابة إلى اللَّه تعالى وتطهيره من الذنوب وأوضارها ، فإن زينة الظاهر مع خراب الباطن لا تغني شيئًا قال اللَّه تعالى : ﴿ **يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس**

(١)أي أرجى الليالي ليلة القدر عند أهل المدينة .

التقوى ذلك خير ﴾ .

إذا المـــرء لم يلبس ثيـابًا من التـقى تقلب عـريانـا وإن كـان كـاسـيًا

ويوصى الشاعـر بترك زاد الدنيـا بالصوم والحصـول على زاد الآخرة وهو التقوى وذلك لقـول اللَّه عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ .

زاد بزاد ويـا شـتّـان بينهـمـا تقوى الإله بصـوم الشهر تشريهـا

لا يصلح لمناجـاة الملك في الخلوات إلاّ من زيّن ظاهره وبـاطنه وطهرهمـا خصوصًا لملك الملوك الذي يعلم السر وأخفى وهو لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

قالوا غـدًا العيـد مـاذا أنت لابسـه فـقلت خلعـة سـاق حبه جـرعـا

فـقر وصـبر هـما ثوبـان تحتهـمـا قلب يرى إلفـه الأعيـاد والجـمعا

أحرى الملابس أن تلقى الحبيب بـه يوم التـزاور بالثوب الذي خـلعـا

الدهـر لي مـأتم إن غـبتَ يا أمـلي والعيـد ما كنت لي مرأى ومستمعا

(٦) **الاعتكاف** : ففي « الصحيحين » « عن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه اللَّه » .

وإنما كان يعـتكف ﷺ في هذه العشـر التي يطلب فيـها ليلة القـدر قطعًا لإشغاله وتفريغًا لليـاليه وتخليًا لمناجاة ربه وذكره ودعائه ، وكان يحتـجر حصيراً يتخلى فيها عن الناس فلا يخالطهم ولا يشتغل بهم »[١] .

فالمبادرة المبادرة إلى اغتنام العمل فيمـا بقى من الشهر فعسى أن يستدرك به ما فات من ضياع العمر .

(١) « لطائف المعارف » (٢٠٧ ـ ٢١٣) .

تولى العمر في سهو وفي لهو وفي خسر

فيا ضيعة ما أنفقت في الأيام من عمري

ومالي في الذي ضيعت من عمري من عذر

فما أغفلنا عن واجبات الحمد والشكر

أما قد خصنا اللَّه بشهر أيما شهر

بشهر أنزل الرحمن فيه أشرف الذكر

وهل يشبهه شهر وفيه ليلة القدر

فكم من خبر صحّ بما فيها من الخير

روينا عن ثقات أنها تطلب في الوتر

فطوبى لامرئ يطلبها في هذه العشر

ففيها تنزل الأملاك بالأنوار والبر

وقد قال « سلام هي حتى مطلع الفجر »

ألا فادخروها إنها من أنفس الذكر

فكم من معتق فيها من النار ولا يدري[1]

في الليالي العشر ينال القوم مطلوبهم بخدمة محبوبهم . « رياح الأسحار تحمل أنين المذنبين وأنفاس المحبين وقصص التائبين ثم تعود بردّ الجواب بلا كتاب» .

أعلمتُ أن النسيم إذا سرى حمل الحديث إلى الحبيب كما جرى

جهل الحبيب بأنني في حبهم سهر الدجى عندي ألذ من الكرى

(١) « لطائف المعارف » (٢٠٧ ـ ٢١٣) .

فإذا ورد بريد برد السحر يحمل ملطفات الألطاف لم يفهمها غير من كتبت إليه .

نسيم صبا نجد متى جئت حاملا　　تحيتهم فاطو الحديث عن الركبِ
ولا تذع السر المصون فإنني　　أغار على ذكر الأحبة من صحبي

يا يعقوب الهجر قد هبت ريح يوسف الوصل ، فلو استنشقت لعدت بعد العمى بصيرًا ، ولوجدت ما كنت لفقده فقيرًا .

كان لي قلب أعيش به　　ضاع مني في تقلبه
رب فاردده عليّ فقد　　عيل صبري في تطلبه
واغث ما دام بي رمق　　يا غياث المستغيث به

قال يحيى بن معاذ : ليس بعارف من لم يكن غاية أمله من اللَّه العفو .

إن كنت لا أصلح للقرب　　فشأنكم عفوٌ عن الذنبِ

كان مطرف يقول في دعائه : « اللَّهم ارض عنا ، فإن لم ترض عنا فاعفَ عنا » .

من عظمت ذنوبه في نفسه لم يطمع في الرضا وكان غاية أمله أن يطمع في العفو ومن كملت معرفته لم ير نفسه إلا في هذه المنزلة .

يا رب عبدك قد أتاك　　وقد أساء وقد هفا
يكفيه منك حياؤ　　ه من سوء ما قد أسلفا
حمل الذنوب على　　الذنوب الموبقات وأسرفا
وقد استجار بذيل عفوك　　من عقابك ملحفا
رب اعف عنه　　فلأنت أولى من عفا (١)

(١) « لطائف المعارف » .

في وداع رمضان

إخوتاه :

إذا أكمل الصائمون صيام رمضان وقيامه فقد وفوا ما عليهم من العمل وبقى ما لهم من الأجر وهو المغفرة .

من وفىّ ما عليه من العمل كاملاً وفىّ له الأجر كاملاً ، ومن سلم ما عليه موفرا تسلم ماله نقداً لا مؤخراً .

ما بعتكم مهجتي إلا بوصلكم ولا أسلمها إلا يداً بيد

فإن وفيتهم بما قلتم وفيت أنا وإن أبيتم يكون الرهن تحت يدي

ومن نقص من العمل الذي عليه ، نقص من الأجر بحسب نقصه فلا يلم إلا نفسه .

قال سلمان : الصلاة مكيال فمن وُفى وفيّ له ومن طفف فقد علمتم ما قيل في المطففين . فالصيام وسائر الأعمال على هذا المنوال من وفّاها فهو من خيار عباد اللّه الموفين ، ومن طفف فيها فويل للمطففين ، أما يستحيي من يستوفى مكيال شهواته ويطفف في مكيال صيامه وصلاته .

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا

إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساؤا فبئس ما صنعوا

كان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمل وإكمال ، ثم يهتمون بعد ذلك بقبوله ويخافون من رده وهؤلاء الذين ﴿ يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ . كانوا لقبول العمل أشد اهتمامًا منهم بالعمل ، وقد سمعوا قول اللّه عز وجل : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ .

عن فضالة بن عبيد قال : لأن أكون أعلم أن اللّه قد تقبل مني مثقال حبة من خردل أحب إليّ من الدنيا وما فيها لأن اللّه يقول : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ .

* وقال مالك بن دينار ، الخوف على العمل أن لا يتقبل أشد من العمل.

*وقال عبد العزيز بن أبي داود : أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح فإذا فعلوه وقع عليهم الهمّ أيقبل منهم أم لا ؟

* وخرج عمر بن عبد العزيز ـ رحمه اللَّه ـ في يوم عيد الفطر فقال في خطبته : « أيها الناس إنكم صمتم للَّه ثلاثين يومًا وقمتم ثلاثين ليلة وخرجتم اليوم تطلبون من اللَّه أن يتقبل منكم » .

كان بعض السلف يظهر عليه الحزن يوم عيد الفطر فيقال له : إنه يوم فرح وسرور فيقول : صدقتم ، ولكني عبد أمرني مولاي أن أعمل له عملاً فلا أدري أيقبله مني أم لا ، ورأى وهيب بن الورد قومًا يضحكون في يوم عيد فقال: إن كان هؤلاء تقبل منهم صيامهم فما هذا فعل الشاكرين ، وإن كان لم يتقبل منهم صيامهم فما هذا فعل الخائفين !!

* وعن الحسن قال : إن اللَّه جعل شهر رمضان مضمارًا لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته فسبق قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا فالعجب من اللاعب الضاحك في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون .

لعلك غضبان وقلبي غافل .... سلام على الدارين إن كنت راضيًا

فياليت شعري من هذا المقبول فنهنّيه ، ومن هذا المحروم فنعزيه .

ماذا فات من فاته خير رمضان ، وأي شيء أدرك من أدركه فيه الحرمان ، كم بين من حظه فيه القبول والغفران ، و من كان حظه فيه الخيبة والخسران .

متى يغفر لمن لا يغفر له في هذا الشهر ؟ من يقبل من رد في ليلة القدر.

متى يصلح من لا يصلح في رمضان ؟ متى يصلح من كان فيه من داء الجهالة والغفلة مرضان ؟!

إذا الروض أمسى مجدبًا في ربيعه ... ففي أي حين يستنير ويُخصِبُ

كل ما لا يثمر من الأشجار في أوان الثمار فإنه يقطع ، ثم يوقد في النار.

*من فرط في الزرع في وقت البدار لم يحصد يوم الحصاد غير الندم والخسران .

ترحل شهر الصبر والهفاه وانصرما   واختص بالفوز في الجنات من خدما
وأصبح الغافل المسكين منكسراً   مثلي فياويحه يا عظم ما حرما
من فاته الزرع في وقت البدار فما   تراه يحصد إلا الهمّ والندما

* يا إخوتاه شهر رمضان يفاض على المتقين في أوله خلع الرحمة والرضوان، ويعامل أهل الإحسان بالفضل والإحسان ، وأما أوسط الشهر فالأغلب عليه المغفرة ، وأما آخر الشهر فيعتق فيه من النار من أوبقته الأوزار واستوجب النار بالذنوب الكبار، وإنما كان يوم الفطر من رمضان عيد الجميع الأمة لأنه تعتق فيه أهل الكبائر من الصائمين من النار ، فيلتحق فيه المذنبون بالأبرار .

* رُؤى بعض العارفين ليلة عيد يبكي على نفسه وينشد :

بحرمة غربتي كم ذا الصدود   ألا تعطف عليّ ألا تجودُ
سرور العيد قد عمّ النواحي   وحزني في ازدياد لا يبيد
فإن كنت اقترفت خلال سوء   فعذري في الهوى أن لا أعودُ

فيا أرباب الذنوب العظيمة : الغنيمة الغنيمة في هذه الأيام الكريمة ، فما منها عوض ولا لها قيمة . فمن يعتق فيها من النار فقد فاز بالجائزة العظيمة ، والمنحة الجسيمة .

يا من أعتقه مولاه من النار : إياك أن تعود بعد أن صبرت حرا إلى رق الأوزار، أيبعدك مولاك من النار وتتقرب منها ، وينقذك منها وأنت توقع نفسك فيها ولا تحيد عنها .

وإن امرءاً ينجو من النار بعدما   تزوّد من أعمالها لسعيدُ

إن كانت الرحمة للمحسنين فالمسئ لا ييأس منها ، وإن تكن المغفرة للمتقين فالظالم غير محجوب عنها .

إن كان لا يرجوك إلا محسن   فمن الذي يرجو ويدعو المذنب

فيا أيها العاصي وكلنا ذلك لا تقنط من رحمه اللّٰه بسوء أعمالك ، فكم يعتق من النار في هذه الأيام من أمثالك ، فأحسن الظن بمولاك وتب إليه فإنه لا يهلك على اللّٰه هالك .

إذا أوجعتك الذنوب فداوها ... برفع يد بالليل والليل مظلمُ
ولا تقنطن من رحمة اللّٰه إنما ... قنوطك منها من ذنوبك أعظمُ
فرحمته للمحسنين كرامة ... ورحمته للمذنبين تكرّمُ

كان بعض السلف إذا صلى استغفر من تقصيره فيها كما يستغفر المذنب من ذنبه إذا كان هذا حال المحسنين في عباداتهم فكيف حال المسيئين مثلنا في عباداتهم ارحموا مَنْ حسناتهُ كلها سيئات وطاعاته كلها غفلات .

أستغفر اللّٰه من صيامي ... طول زماني ومن صلاتي
يوم يرى كله خروق ... وصلاته أيّما صلاة
مستيقظ في الدجى ولكن ... أحسن من يقظتي سباتي

من استغفر بلسانه وقلبه على المعصية معقود ، وعزمه أن يرجع إلى المعاصي بعد الشهر ويعود، فصومه عليه مردود ، وباب القبول عنه مسدود»[1] .

« كان حسان بن أبي سنان يصوم الدهر ويفطر على قرص ويتسحر بآخر، فنحل وسقم جسمه حتى صار كهيئة الخيال ، فلما مات وأدخل مغتسلة ليغسل كشف الثوب عنه فإذا هو كالخيط الأسود قال : وأصحابه يبكون حوله .

قال حُريث : فحدثني يحيى البكّاء وإبراهيم بن محمد العُرنيّ قالا : لما نظرنا إلى حسان على مغتسله وما قد أبلاه الدءوب استدمع أهل البيت وعلت أصواتهم فسمعنا قائلاً يقول من ناحية البيت :

(١) « لطائف المعارف » .

تجوّع للإله لكي يراه نحيل الجسم من طول الصيامِ

فواللَّه ما رأينا في البيت إلا باكيًا ونظرنا فلم نجد أحدًا .

قال حريث بن طرفة : فكانوا يرون أن بعض الجن قد بكاه »[(١)] .

* أين من كان إذا صام صان الصيام ، وإذا قام استقام في القيام ، أحسنوا الإسلام ثم رحلوا بسلام ، فما بقى إلا من إذا صام افتخر بصيامه وصال ، وإذا قام عجب بقيامه وقال : كم بين خليّ وشجيّ ، وواجد وفاقد ، وكاتم ومبدي .

« عباد اللَّه إن شهر رمضان قد عزم على الرحيل ، ولم يبق منه إلا القليل، فمن منكم أحسَن فيه فعليه التمام ، ومنْ فَرّط فليختمه بالحسنى والعمل بالختام ، فاستغنموا منه ما بقى من الليالي اليسيرة والأيام ، واستودعوه عملاً صالحًا يشهد لكم به عند الملك العلاّم ، وودعوه عند فراقه بأزكى تحية وسلام .

سلام من الرحمن كل أوان على خير شهر قد مضى وزمانِ

سلام على شهر الصيام فإنه أمان من الرحمن كل أمانِ

لئن فنيت أيامك الغر بغتة فما الحزن من قلبي عليك بفانِ»[(٢)]

« شهر رمضان ، وأين هو شهر رمضان ؟ ألم يكن منذ لحظات بين أيدينا، ألم يكن ملء أسماعنا وملء أبصارنا ؟ ألم يكن هو حديث منابرنا ، زينة منائرنا، وبضاعة أسواقنا ، ومادة موائدنا ، وسمر أنديتنا ،وحياة مساجدنا فأين هو الآن !! »[(٣)] .

* أي شهر رمضان ، أي سلطان الشهور وجامع البشر والسرور جمع

---

(١) « لطائف المعارف » .

(٢) « التبصرة » لابن الجوزي (١/ ١٩٩) .

(٣) « وداع رمضان » لمحمد عبد اللَّه دراز .

البستان للزهور ، أي شهر رمضان باث الأنس والحبور بث البدور للنور .

* أي شهرنا الكريم ، وموسم خيرنا الوسيم ، أي شهر المكرمات والكرامات ، انجابت فيك الظلمات والظلامات ، وتضاعفت فيك الحسنات ، وفتحت أبواب السموات ، لو لم يكن لك من الفضل إلا ليلة القدر ، وتردد الملائكة حتى مطلع الفجر لكان كفاية في تفضيلك ونهاية في تبجيلك .

* أي شهر الأرواح ، تهتز فيك وترتاح ، وتطير بغير جناح .

* أي شهر النعيم وددنا أن لو كان شهرك حجة [1] وياليتك فينا ما تزال مقيمًا .

* أي شهرنا الذي هيمّ نفوسنا ، أي شهرنا المعظم قدره ، المشرف ذكره.

« لقد ذهبت أيامه وما أطعتم ، وكتبت عليكم فيه آثامه وما أضعتم ، وكأنكم بالمشمرين فيه وقد وصلوا وانقطعتم ، أترى ما هذا التوبيخ لكم أو ما سمعتم » .

ما ضاع من أيامنا هل يغرمُ ... هيهات والأزمان كيف تقوّمُ
يوم بأرواح تباع وتشترى ... وأخوه ليس يسام فيه درهم

قلوب المتقين إلى هذا الشهر تحنُّ ومن ألم فراقه تئن .

دهاك الفراق فما تصنعُ ... أتصبر للبين أم تجزع
إذا كنت تبكي وهم جيرة ... فكيف تكون إذا ودّعوا

* كيف لا تجرى للمؤمن على فراقه دموع ، وهو لا يدري هل بقى له في عمره إليه رجوع .

تذكرت أيامًا مضت ولياليا ... خلتْ فجرتْ من ذكرهنّ دموعُ
ألا هل لها يومًا من الدهر عودة ... وهل لي إلى يوم الوصال رجوعُ
وهل بعد إعراض الحبيب تواصل ... وهل لبدور قد أفلن طلوعُ

(١) سنة .

* أين حرق المجتهدين في نهاره ،أين قلق المتهجدين في أسحاره ، كيف حال من خسر في أيامه ولياليه ، ماذا ينفع المفرط فيه بكاؤه ، وقد عظمت فيه مصيبتُ وجَلّ عزاؤه . كم نصح المسكين فما قبل النصح ، كما دُعي إلى المصالحة فما أجاب إلى الصلح ، كم يشاهد الواصلين فيه وهو متباعد ، كم مرّت به زمر السائرين وهو قاعد ، حتى إذا ضاق به الوقت ، وخاف المقت ، ندم على التفريط حين لا ينفع الندم ، وطلب الاستدراك في وقت العدم .

أتترك من تحب وأنت جار ... وتطلبهم وقدْ بعد المزار
وتبكي بعد نأيهم اشتياقا ... وتسأل في المنازل أين ساروا
تركت سؤالهم وهم حضور ... وترجو أن تخبرك الديارُ
فنفسك لُمْ ولا تلم المطايا ... ومتْ كمدا فليس لك اعتذارُ

* يا شهر رمضان تَدَفَّقْ ، دموع المحبين تَدفَّقْ ، قلوبهم من ألم الفراق تَشقَّقْ . عسى وقفة للوداع تطفئ من نار الشوق ما أحرق ، عسى ساعة توبة وإقلاع ترفو من الصيام ما تخرّق ، عسى منقطع عن ركب المقبولين يلحق ، عسى أسير الأوزار يطلق ، عسى من استوجب النار يُعتقْ .

عسى وعسى من قبل وقت التفرقِ ... إلى كلّ ما يرجو من الخير تلتقي
فيجبر مكسور ويقبل تائب ... ويعتق خطّاء ويسعد من شقي[1]

* * *

(١) « لطائف المعارف » لابن رجب .

مواعظ

موعظـــة ...

أخي : من صام عن الطعام والشراب فصومه عادة .

ومن صام عـن الربا والحرام وأفطر على الحـلال من الطعام فـصومـه عدة وعبادة .

ومن صام عـن الذنوب والعصيـان وأفطر على طاعـة الرحمن فإنـه صائم رضيّ .

ومن صام عن القبائح وأفطر على التوبة لعلام الغيوب فهو صائم تقى .

ومن صام عن الغيبة والبهتان وأفطر على تلاوة القرآن فهو صائم رشيد .

ومن صـام عن المنكر والأغيـار وأفطر على الفكرة والاعـتبار فـهو صـائم سعيد.

ومن صـام عن الرياء والانتـقاص وأفطر على التـواضع والإخـلاص فهـو سالم.

ومن صام عن خلاف النفس والهوى وأفطر على الشكر والرضا فهو صائم غانم .

ومن صام عن قبيح أفعاله وأفطر على تقصير آماله فهو صائم مشاهد .

ومن صام عن طول أمله وأفطر على تقريب أجله فهو صائمٌ زاهد .

قال ابن القيم : الصوم لجام المتقين وجنة المحاربين ورياضة الأبرار والمقربين وهو لرب العالمين .

***

يا قــادمًا بالتقى في عــينك الحبُّ طـال اشـتيـاقي فكم يهفـو لكم قلبُ
صبرت عـامــًا أمنّي قـرب عـودتكم نفـســي فـهـل يدنــو لكم سـرب
قل هلّ طيـفكمو فـاخضـر عامـرنـــا والله أكرمنــــا إذ جـــاءنا الخصبُ
فـفـيكمـوا يـرتقي الأبـــرار منزلةً والخـاملون كـسالى زرعهم جـدب[1]

يقول الشاعر :

لـلـعـنـــاق الألآق قـم اطـلـق الروح ... تُـلقّـاهُ بـكرةً وعـشـيـا
بانجــذاب الأشــواق رُح باشـــر الإقـبال تَحسُـو الأنوارَ .. طلقًا ظميا
وتزود بخـيـر زاد ـ هـي التـقـوى ـ اتخــذ بُـرْدَها المُبــارَكَ زيــًا
عبْـرَ روضاته الفسيحات فاسبــح تقطف الهدى منه شـهـــداً جنيـا
عند أعـتـــاب بابه فـتـمـســح تبلغ الروح منك ســقف الثـــريا
واعمــل الصالحات فيـــه فإن الأجر يربُو .. فـاغنمـه ربحــا رضيــا
وانصـب الوجـــه للعلـي تعــالى (إنه كـــان وعــــده مـأتيــــا)
وعلى عـشـره الأواخـر فـانكبَّ دءوبًا وانهـض بهـن حـــفـيــــا
شمر الساعدين .. أسرج قوى الإيمـان تطـــوى بها السويعـــات طيـا(٢)

قـال ﷺ : « خير أمـتي القرن الذي بعثت فـيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يخلف قوم يحبون السّمانة ، يشهدون قبل أن يُستشهدوا »[3] .

---

(١) المجلة العربية رمضان (١٤١٤هـ) .

(٢) المجلة العربية رمضان (١٤١١هـ) ـ للشاعر فريد قرني .

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة .

عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال : « كنا نغازي ومعنا عطاء الخرساني وكان يحيي الليل صلاة فإذا كان في جوف الليل نادى من فسطاطه يا يزيد بن جابر يا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر يا هشام بن الغاز قوموا فتوضئوا فصلوا ، قيام هذا الليل وصيام هذا النهار أهون من مقطعات الحديد ولباس القطران الوحاء ثم الوحاء ثم الوحاء ، النجاء ثم النجاء ثم يقبل على صلاته»[1] .

عن الهيثم بن جماذ قال :دخلت على يزيد الرقاشي وهو يبكي في يوم حار وقد عطش نفسه أربعين سنة فقال لي : أدخل تعالى نبكي على الماء البارد في اليوم الحار .

عن مالك قال : بلغني أن حسين بن رستم الأيلي دخل على قوم وهو صائم فقالوا له : أفطر فقال : إني وعدت اللّه وعدا ، وأنا أكره أن أُخلف اللّه ما وعدته .

*قالوا : الصوم لذة الحرمان .

*وقالوا : الصوم رجولة مستعلنة وإرادة مستعلية[2] .

* قالوا : رمضان شهر الحرية عما سوى اللّه ، « وفي الحرية تمام العبودية، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية » كما يقول أحمد بن خضرويه .

*قالوا : رمضان شهر القوة فليس الشديد بالصرعة إما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب .

« والصيام الذي فرضه اللّه على المسلمين فيه الجمع بين القوتين المعنوية والمادية جمعا رائعًا منسجمًا يعطي أحسن الثمار .

وهو من الناحية المعنوية يعطي المسلم ثلاث قوى معنوية لها أكبر الأثر في سعادة الأفراد والجماعات :

---

(١)« شعب الإيمان » .

(٢)« أحكام الصيام وفلسفته في ضوء القرآن والسنة » للدكتور مصطفى السباعي المكتب الإسلامي.

أولاهما ـ الصبر : وما أدراك ما الصبر وخاصة في ميدان المعركة .

ثانيهما : الطاعة : امتثالاً لأمر اللّه وطاعة لرسوله .

« وهل كان خالد بن الوليد يصل إلى المثل الأعلى في القائد الذي يعزل وهو في قلب المعركة فيسلم القيادة إلى غيره ، ثم ينخرط جنديًا يقاتل بنفس الروح العالية التي كان يقاتل بها وهو قائد ، ثم يقول قولته المشهورة : « إنما أحارب لرب عمر لا لعمر » .

ثالثها : النظام : فالمسلم في رمضان يأكل بنظام ، وينام بنظام ، ويستيقظ بنظام ، والمجتمع الإسلامي في رمضان مجتمع يتجلّى فيه النظام بأروع مظاهره.

هذه هي الأخلاق التي يغرسها الصيام في نفس المسلم : الصبر والطاعة والنظام .

أترون أمة من الأمم تتحلى بهذه القوى المعنوية ، ثم تجد سبيلها إلى الانهيار.

أترون جيشًا يتحلى أفراده بهذه الأخلاق القوية ، ثم يجد نفسه على عتبة الهزيمة .

فلاتنس وأنت تصوم رمضان أن اللّه يريد أن يجعلك بالصيام مثال « القوى الأمين فحذار أن ينسلخ عنك رمضان وأنت « الضعيف الخائن »[(١)] .

وأنشد بعضهم :

الصوم جنة أقوام من النار ... والصوم حصن لمن يخشى من النار
والصوم ستر لأهل الخير كلهم ... الخائفين من الأوزار والعار
والشهر شهر آله العرش مّن به ... رب رحيم لثقل الوزر ستار
فصام فيه رجالٌ يربحون به ... ثوابهم من عظيم الشأن غفار
فأصبحوا في جنان الخلد قد نزلوا ... من بين حور وأشجار وأنهار

(١) بتصرف من كلام الدكتور مصطفى السباعي في كتابه « أحكام الصيام وفلسفته » .

فضل الجوع :

رويُ عن يحيى بن معاذ ـ رضي اللَّه عـنه ـ أنه قال من شبع مـن الطعام عجز عن القيـام ، ومن عجز عن القيام افتضح بين الخـدّام ، وإذا امتلأت المعدة رقدت الأعضاء عن الطاعات وقعدت الجوارح عن العبادات » وأنشدوا :

تجـوع فـإن الجـوع يورث أهله ... عواقب خير عمهـا الدهـر دائم
ولا تك ذا بطـن رغيب وشـهـوة ... فتصبح في الدنيـا وقلبك هائـم

* وروي عن ذي النون المصري ـ رحمه اللَّه تعالى ـ أنه قال : تجوع بالنهار وقم بالأسحار ترى عجبًا من الملك الجبار .

*ورُوي عن يحيى بن معاذ ـ رضي اللَّه عنه ـ أنه قال : لو كان الجوع يباع في السوق لكان المريد محقوقًا إذا دخل السوق ألا يشتري شيئًا غيره .

واللَّه تعالى قـد فضلكم بدين الإسلام ومـنَّ عليكم بشهر الصـيام ، واللَّه أعلم ، وأنشدوا :

وربك لو أبـصـرت يومًـا تتـابعت ... عزائمـهم حتى لقـد بلغـوا الجـهدَا
لأبصرت قومًا حـاربوا النـوم وارتدوا ... بأردية السـهـاد واستـعـملوا الكدّا
وصـامـوا نـهـارًا دائمًـا ثـم أفطروا ... على بلغ الأقوات واستقربوا البعـدا
أولئك قـوم حـسّن اللَّـه فـعلهم ... وأورثهم مـن حـسن فـعلهم الخلدا

*حج روح بن زنباع مرة فنزل على ماء بين مكة والمدينة فأمر فأصلحت له أطعمة مختلفـة الألوان ، ثم وضعت بين يديه . وبينما هو يأكل إذ جاء راع من الرعاة يرد الماء فدعاه روح بن زنباع إلى الأكل من ذلك الطعام فجاء الراعي فنظر إلى طعامه وقـال : إني صائم فقال له روح : في مثل هذا الـيوم الطويل الشديد الحر تصـوم يا راعي ؟ فقـال الراعي : أفأغبن أيامي من أجل طـعامك ، ثم إن

الراعي إرتاد لنفسه مكانًا فنزله وترك روح ابن زنباع فقال روح :

لقد ضننت بأيامك يا راعي إذ جاد بها روح بن زنباع

ثم إن روحًا بكى طويلاً وأمر بتلك الأطعمة فرفعت وقال : انظروا هل تجدون لها آكلا من هذه الأعراب أو الرعاة ؟

ثم سار من ذلك المكان وقد أخذ الراعي بمجامع قلبه وصغرت إليه نفسه والله تعالى أعلم(١) .

وشهر الصوم شاهده علينا بأعمال القبائح والذنوب
فيا رباه عفواً منك والطف بفضلك للمحير والكئيب
وهذا الصوم لا تجعله صومًا يصيرنا إلى نار اللهيب
سلام الله ما هبت عليه قبولٌ أو شمال أو جنوب

*قال صالح المرى : كان عطاء السلمي قد اجتهد حتى انقطع فقلت : له يومًا إني مكرمك بكرامة فلا ترد كرامتي فبعثت إليه شربة من سويق مع ولدي وقلت له لاتبرح حتى يشربها فجاء فقال : قد شربها فبعثت له في اليوم الثاني مثلها فجاء فقال : ما شربها، فأتيت إليه فلمته وقلت : رددت عليّ كرامتي وهذا يقويك على العبادة فقال : يا أبا بشر لقد شربتها في أول يوم واجتهدت في الثاني فلم أقدر كلما هممت بشربها ذكرت قوله تعالى : ﴿ وطعاما ذا غصة ﴾ قال : فقلت : أنا في وادٍ وأنت في واد .

أطلتَ وعنفتني يا عزولْ بليت فدعني حديثي طويل
هواىَ هوىً باطن ظاهر قديم حديث لطيف جليل
ألا ما لذا الليل لا ينقضي كذا ليل كل محب طويل
أبيت أساهر نجم الدجى إلى الصبح وحدي ودمعي يسيل

(١) « البداية والنهاية » (٩/٥٨ ـ ٥٩) .

أمت نفسك حتى تحييها ، فعاقبة الصبر حلوة كم صبر بشر عن مشتهى حتى سمع : كل يا من لم يأكل ما مد سجاف « نعم العبد » على قبة ﴿ ووهبنا له أهله ﴾ حتى جرب في أمانة ﴿إنا وجدناه صابرًا﴾

إنَّ الألم ليحمد إذا كان طريقًا إلى الصحة ، وإنّ الصحة لتذم إذا كانت سبيلاً إلى المرض ، أي فائدة ساعة أوقعت غمًا طويلاً ، ما فهم مواعظ الزمان من أحسن الظن بالأيام ، إياك أن تسمع كلام الأمل فإنه غرور محض .

ألا خيراً لمقترح النواح أطير إليه منشور الجناح
فأسأله وألطفه عساه سيسلى ما بقلبي من جراح
ويجلو ما دجا من ليل جهلي بنور هدى كمنسلخ الصباح
سأصرف همتي بالكل عما نهاني اللَّه عن أمر المزاح
إلى شهر الخضوع مع الخشوع إلى شهر العفاف مع الصلاح
يجازي الصائمون إذا استقاموا بدار الخلد والحور الملاح
وبالغفران من رب عظيم وبالملك الكبير بلا براح
فيا أحبابنا اجتهدوا وجدّوا لهذا الشهر من قبل الرواح
عسى الرحمن أن يمحو ذنوبي ويغفر ذلتي قبل افتضاحي

قال الحسن : إن للَّه تعالى عبادًا كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين وكمن رأى أهل النار في النار معذبين ، قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة وأنفسهم عفيفة وحوائجهم خفيفة صبروا أيامًا قصاراً تعقب راحة طويلة ، أما الليل فصافة أقدامهم تسيل دموعهم على خدودهم يجأرون إلى ربهم عز وجل ربنا ربنا ، وأما النهار فعلماء حلماء بررة أتقياء ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى أو قد خولطوا وما بهم مرض ولكن خالط القوم أمرٌ عظيم »[1] . يا قليل الصبر إنما هي مراحل فصابر لجة البلاء فالموت ساحل ، تأمل تحت سجف ليل الصبر

---

(١) « التبصرة » (٢٠٠/٢) .

صبح الأجر ، واحبس لسانك عن الشكوى في سجن الصبر ، واقطع نهار اللأواء بحديث الفكر ، وأوقد في دياجي الآلام مصباح الشكر ، وقلب قلبك بين ذكر الثواب وتمحيص الوزر وتعلم أن البلاء يمزق ركام الذنوب تمزيق الشباك ويرفع درجات الفضائل إلى كاهل السماك ومن تفكر من سر ﴿إن اللّه مع الصابرين﴾ أنس بجليسه ومن تذكر ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ فرح بامتلاء كيسه .

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

سجع على قوله تعالى : ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾

للّه أقوام امتثلوا ما أمروا وزجروا عن الزجر فانزجروا فإذا لاحت الدنيا غابوا وإذا بانت الأخرى حضروا فلو رأيتهم في القيامة إذا حشروا ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾ .

جن عليهم الليل فسهروا ، وطالعوا صحف الذنوب فانكسروا وطرقوا باب المحبوب واعتذروا وبالغوا في المطلوب ، ثم حذروا فانظر بماذا وعدوا في الذكر وذكروا ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾ .

ربحوا واللّه وما خسروا وعاهدوا على الزهد فما عذروا واحتالوا على نفوسهم فامتلكوا وأسروا ، وتفقدوا نعم المولى فاعترفوا وشكروا ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾ .

بيوتهم في خلوها كالصوامع ، وعيونهم تنظر بالتقى من طرف خاشع ، والأجفان قد سحت سُحْبَ المدامع تسقى بذر الفكر الذي بذروا ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾ .

*استوحشوا من كل جليس شغلا بالمعنى النفيس وذموا مطايا الجد فسارت العيس وبادروا الفرصة ففاتوا إبليس لا وقفوا ولا فتروا ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾ .